# شعر الدعوة في العهد النبوي الشريف

لقد كان للشعر دور كبير في حياة العرب، فهو لسان حالها، المعبر عن آلامها وآمالها، والمقيد لأنسابها وتاريخها وأيامها، فهو بحق كما قال ابن خلدون «ديوان علوم العرب وأخبارهم».

وإذا كان لهذا الفن الرفيع دور بارز في توجيه النفوس العربية إلى الخير وترغيبها فيه، والحث على الفضائل والمكرمات وتزيينها لهم، فإنه ساهم إلى حد بعيد في تأجيج النفوس، وإذكاء نار الحرب، والدعوة إلى الأخذ بالثأر، وتخويف الناس..

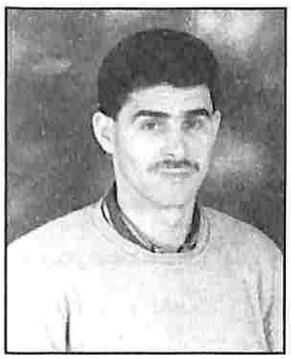

بقلم: أ. موسى شيحي*
المغرب

وقد استطاع ابن رشيق أن ينقل إلينا- بكل صدق- خطورة هذا الشعر وسلطانه على النفوس والقلوب، ومدى خلود هذا السلطان، فقال: «ومن هنا عظم الشعر، وتهيب أهله، خوفاً من بيت سافر تحدى به الإبل، أو لفظة شاردة يضرب بها المثل، ورجاء في مثل ذلك، فقد رفع كثيراً من الناس ما قيل فيهم من الشعر بعد الخمول والاطراح، حتى افتخروا بما كانوا يعيرون به، ووضع جماعة من أهل السوابق والأقدار الشريفة حتى عيروا بما كانوا يفتخرون به»[1].

* كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول- وجدة.

وجاء الإسلام فوجد الشعر على هذا الحال، فاحتضنه ورحب به، ووجهه الوجهة التي تتفق مع مبادئه، وكان الرسول ﷺ يدرك ما للشعر من سلطان على نفوس العرب وقلوبهم وأفكارهم، فجند طائفة من الشعراء المسلمين يتزعمهم حسان بن ثابت رضي الله عنه للدفاع عن الدعوة الإسلامية، وحملهم مسؤولية الذود عن الله ورسوله.

ولما رأت قريش أن هذا الدين بدأ يتوسع وينتشر ويجد القلوب والآذان الصاغية، قامت كرجل واحد لمحاربته، فسخرت كل الأسلحة لمواجهته، ومن بين الأسلحة التي اختارتها للقضاء على الإسلام وأهله «الشعر»، فراح مشركو مكة يغرون شعراءهم بهذا الدين الجديد، وعملوا على التنفير منه وتشويهه والصد عنه، ومن جملة شعراء قريش الذين وقفوا في وجه الدعوة الإسلامية نذكر: أبا سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب، وعبدالله بن الزبعرى، وعمرو بن العاص، وضرار بن الخطاب الفهري، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي، وأبا عزة الجمحي، ومسافع بن عبدمناف، وكعب ابن الأشرف اليهودي، وغيرهم..

ولقد كان أبوسفيان أحد الشعراء الذين آذوا النبي ﷺ وهجوه - ومما يؤكد ذلك ماقاله حسان بن ثابت يهجوه في قصيدته الهمزية المشهورة التي منها:

**ألا أبلغ أبا سفيان عني**
**فأنت مجوف نخب هواءُ**
**هجوت محمداً فأجبت عنه**
**وعند الله في ذاك الجزاءُ**
**أتهجوه ولست له بكفء**
**فشركما لخيركما الفداءُ**[٢]

ومن شعر أبي سفيان الذي قاله يحرض به قريشاً على حرب المسلمين واستئصالهم قوله:

**كروا على يثرب وجمعهم**
**فإن ما جمّعوا لكم نفلُ**
**إن يك يوم القليب كان لهم**
**فإن ما بعده لكم دولُ**
**آليت لا أقرب النساء ولا**
**يمس رأسي وجلدي الغُسُلُ**[٣]

وكان عبدالله بن الزبعرى السهمي من أشد الناس على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه بلسانه[٤] وقد هجاه كعب بن مالك رضي الله عنه هجاء موجعاً، أثبت فيه أن ابن الزبعرى قد تعرض في هجائه لرسول الله ﷺ في قصيدة طويلة[٥].

وكانت عصماء بنت مروان تؤذي النبي ﷺ وتعيب الإسلام وأهله[٦].

ولم يكتف شعراء المشركين بهجاء النبي ﷺ وأصحابه، وإنما وقفوا في وجه مَنْ أسلم، مِنْ ذلك ما قاله أبان بن سعيد القرشي يلوم أخويه (خالداً وعمراً) ويتهمهما بالكذب والافتراء لأنهما أسلما:

**ألا ليت ميتاً بالظريبة شاهد**
**لما يفتري في الدين عمرو وخالدُ**
**أطاعا معاً أمر النساء فأصبحا**
**يعينان من أعدائنا من نكابدُ**

وقال هبيرة بن أبي وهب المخزومي يعاتب زوجته أمَّ هانئ ويلومها ويدعو عليها بالضلال والهلاك:

**... وعاذلة هبت بليل تلومني**
**وتعذلني بالليل ضل ضلالها**
**فكوني على أعلى سحيق بهضبة**
**ململمة غبراء يَبْس بلالها**[٧]

وعبرت عن هذه العداوة أيضاً زوج العباس بن مرداس، التي قالت أبياتاً شعرية تعاتب بها زوجها وتعنفه، لأنه ترك دين آبائه وأجداده وتبع دين محمد، فتقول:

**... لعمري لئن تابعت دين محمد**
**وفارقت إخوان الصفا والصنائع**
**لبدلت تلك النفس ذلاً بعزة**
**غداة اختلاف المرهفات القواطع**[٨]

ولما أسلمت رملة بنت شيبة، قالت ابنة عمها هند بنت عتبة تعيب عليها دخولها في الإسلام، وتعيرها بقتل أبيها شيبة يوم بدر:

لحا الرحمن صابئة بوجٍ
ومكة أو بأطراف الحجون
تدين لمعشر قتلوا أباها
أقَتْلُ أبيك جاءك باليقين[٩]

ويصور هذا الاعتداء والتصدي للمسلمين، سعيد ابن ثجير والذي أسلم فتعرضت له بنو عامر، وقالوا له: صبأت؟ فقال:

وتغضب عامر في غير حرب
علينا أن رأونا مسلمينا [١٠]

والشواهد في هذا الباب كثيرة [١١]، ليس هذا مكان حصرها.

## موقف النبي من شعراء الشرك:

وقد أدرك النبي ﷺ خطورة هذا السلاح، وأثره في النفوس، فأعلنها حرباً عنيفة على هؤلاء الشعراء، فأباح أولاً دماء بعضهم، ليقطع جذورهم، ويكونوا عبرة لغيرهم من الشعراء، فلما بلغه قدوم كعب بن الأشرف الشاعر اليهودي[١٢] المدينة، قال: «اللهم اكفني ابن الأشرف بما شئت في إعلانه الشر وقوله الأشعار»[١٣]، وقال أيضاً: «من لي بابن الأشرف، فقد آذاني» [١٤].

كما أنه ﷺ أباح دم كعب بن زهير، وكان قد أرسل رسالة شعرية إلى أخيه بُجير ينهاه فيها عن الإسلام، يقول فيها:

ألا أبلغا عني بُجيراً رسالة
على أي شيء ويبَ غيرك دلّكا
على خلق لم تلف أما ولا أباً
عليه ولم تدرك عليه أخاً لكا[١٥]

فأرسل إليه أخوه بجير يحذره من فعلته هذه، فقال «ويحك! إن النبي ﷺ قد أوعدك لما بلغه عنك، وقد كان أوعد رجالاً بمكة ممن كان يهجوه، ويؤذيه فقتلهم- يعني ابن خطل[١٦] وابن صبابة [١٧] وإن من بقي من شعراء قريش كابن الزبعرى وهبيرة بن أبي وهب، قد هربوا في كل وجه، فإن كانت لك في نفسك حاجة، فطر إلى رسول الله ﷺ فإنه لا يقتل أحداً جاءه تائباً[١٨].

وذكر البلاذري مجموعة من الشعراء الذين أباح النبي ﷺ دماءهم فقال: وأمر رسول الله ﷺ بقتل ستة نفرٍ وأربع نسوة، فأما النفر فعكرمة بن أبي جهل، وهبار بن الأسود، وعبد الله بن معد بن أبي سرح، ومقيس بن صبابة، وابن خطل، وأما النسوة، فهند بنت عتبة، وسارة مولاة عمرو بن هاشم بن عبد المطلب، وقينتا هلال بن عبد الله بن خطل: فرتنا وأرنب» [١٩].

## حث رسول الله شعراء المسلمين بالرد على شعراء المشركين:

ثم إنه ﷺ أمر ثانياً الشعراء المسلمين بالرد على الشعراء المشركين ودحض افتراءاتهم، وكان حرصه شديداً على أن يؤدي شعر المسلمين غايته على الوجه الصحيح في إحباط عتو المشركين والنيل منهم، ولذلك فإن النبي ﷺ ينتخب لهذه المهمة الكبيرة الشاعر الفحل، والشعر المتين القوي، ليكون شافياً وقاضياً في الوقت نفسه. فبعد أن عُرض عليه الشعراء، اختار حسان بن ثابت رضي الله عنه لأنه رأى أن هذا الشاعر هو الذي يستطيع أن يكمم أفواه الشعراء الكفار ويلجمهم، ففي الحديث الذي روته عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال يُخاطب الشعراء المسلمين: «اهجوا قريشاً فإنه أشد عليها من رشق النبل»، فأرسل إلى ابن رواحة فقال: «اهجهم فهجاهم، فلم يرض، فأرسل إلى كعب بن مالك، ثم أرسل إلى حسان بن ثابت، فلما دخل عليه، قال حسان: قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه، ثم أدلع لسانه، فجعل يحركه، فقال: والذي بعثك بالحق لأفرينهم بلساني فري الأديم، فقال رسول الله ﷺ: «لا تعجل فإن أبا بكر أعلمُ قريش بأنسابها، وإن لي فيهم نسباً حتى يلخص لك نسبي، فأتاه حسانُ ثم رجع، فقال: يا رسول الله قد لخص لي نسبك، والذي بعثك بالحق لأسلنك منهم كما تُسل الشعرة من العجين. قالت عائشة رضي الله

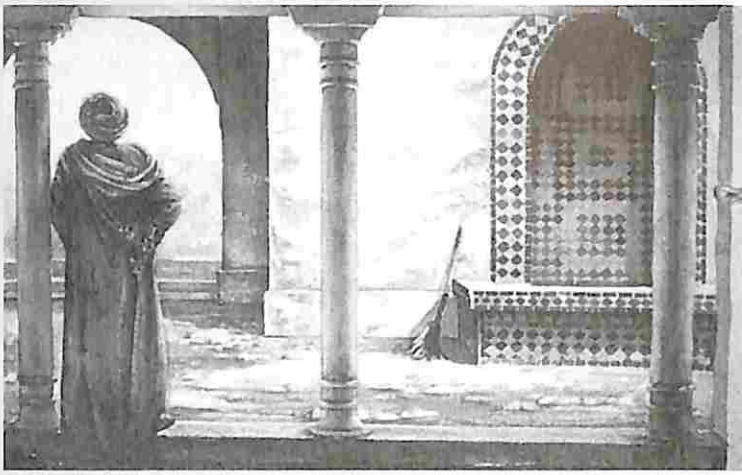

عنها: فسمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان: «إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله» وقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هجاهم حسان فشفى واشتفى»[٢٠].

وقد استنتج الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث أنه يجوز «هجو الكفار مالم يكن أمان، وأنه لا غيبة فيه، وأما أمره ﷺ بهجائهم وطلبه ذلك من الصحابة واحداً بعد واحدٍ ولم يرض قول الأول والثاني حتى أمر حسان، فالمقصود منه النكاية في الكفار، وقد أمر الله تعالى بالجهاد في الكفار والإغلاظ عليهم، وكان هذا الهجو أشد عليهم من رشق النبل، فكان مندوباً لذلك، مع ما فيه من كف أذاهم وبيان نقصهم»[٢١].

لقد كان رسول الله ﷺ يريد أن يكون الشعراء المسلمون على أتم استعداد لمواجهة الشعراء المشركين، وأن يكون شعرهم مبنياً على حجج منطقية وواقعية ليؤدي مفعوله. فأمر حسان أن يذهب إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، العالم بالأنساب، ليستكمل تكوينه، وهو الجانب الذي كان ينقصه. ثم بعد ذلك أعانه بالدعاء وبتأييد جبريل عليه السلام. وهكذا استطاع حسان وإخوانه من الشعراء الآخرين أن يتفوقوا على خصومهم ويؤثروا فيهم.

فهذا حسان بن ثابت رضي الله عنه يهجو الحارث ابن عوف بن أبي حارثة المرّي- وكان قومه قد غدروا بالأنصاري الذي بعثه معه الرسول صلى الله عيه وسلم يدعوهم إلى الإسلام فقال فيه:

يا حارِ من يغدر بذمة جاره
منكم فإن محمداً لم يغدرِ
إن تغدروا فالغدر منكم شيمة
والغدر ينبت في أصول السخبرِ
وأمانة المري حيث لقيته
مثل الزجاجة صدعها لم يجبرِ

فجاء الحارث يعتذر، وودي الأنصاري الذي قتله قومه، وقال: «يا محمد إني عائذ بك من لسان حسان»[٢٢].

وفي رواية أخرى: فجعل الحارث يعتذر، ويقول: «أنا بالله وبك يا رسول الله من شر ابن الفُريعة، فوالله لو مزج البحر بشعره لمزجه، فقال النبي ﷺ: دعه يا حسان، فقال: قد تركته»[٢٣].

ولقد كان الشعر سيفاً من سيوف الدعوة الإسلامية، ونصرة الإسلام والمسلمين، والوقوف في وجه أعداء الدين، فهذا عبد الله بن الزبعرى الذي فر إلى نجران لما أباح رسول الله ﷺ دمه. يرميه حسان بن ثابت ببيت واحد ما زاد عليه:

لا تعدَمَنْ رجلاً أحلّك بغضُه
نجران في عيش أحدَّ لئيم

فبلغ ذلك ابن الزبعرى، فخرج إلى رسول الله ﷺ، فاعتذر إليه، فقبل عذره، وأسلم وحسن إسلامه[٢٤].

وقال حين أسلم أبياتاً رقيقة ومؤثرة، ندم فيها على ما قدمت يداه في عهد الغواية والضلال:

يا رسول المليك إن لساني
راتق ما فتقت إذ أنا بورُ
إذ أباري الشيطان في سنن
الغي ومن مال ميله مثبورُ
آمن اللحم والعظام لربي
ثم قلبي الشهيد أنت النذيرُ[٢٥]

ولقد صدق رسول الله ﷺ عندما قال: «والذي نفسي بيده لكأنما تنضحونهم بالنبل فيما

تقولون من الشعر»[٢٦].

ولقد كان لتوظيف الكلمة في الحرب أثر كبير في نفوس العرب، أسلمت قبيلة دوس فرقاً من قول كعب بن مالك:

**قضينا من تهامة كل ريب**
**وخيبر ثم أجممنا السيوفا**
**نخيرها ولو نطقت لقالت**
**قواطعهن دوساً أو ثقيفاً**

فقالت دوس: انطلقوا فخذوا لأنفسكم لا ينزل بكم ما نزل بثقيف [٢٧].

يتبين لنا من هذا ما كان لشعر الدعوة من أثر في الدفاع عن الإسلام ودحض أعدائه.

وبذلك يكون الإسلام «قد أحدث تغييراً خطيراً في وظيفة الأدب، وتبديلاً كبيراً في نظرة الناس إليه، فهو لم يبقه- كما كان- متعة يستمتع بها الناس في أنديتهم وأسمارهم، ولا متنفساً يتنفسون به عن أحزانهم، وأشواقهم، وإنما طفق يرقى بالأدب حتى جعله ضرباً من ضروب الجهاد، وألحقه بفريضة من أجل الفرائض [٢٨].

ولقد كان الرسول ﷺ يحث شعراءه على أن ينزلوا إلى أرض المعركة ويجاهدوا المشركين بألسنتهم، مؤكداً أن النصرة لا تكون بالسنان وحده بل بالسنان واللسان معاً. فقال ﷺ: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم»[٢٩].

وقال أيضاً: «جاهدوا المشركين بألسنتكم وأنفسكم وأموالكم وأيديكم»[٣٠].

وعن كعب بن مالك أنه أتى النبي ﷺ فقال: إن الله تعالى قد أنزل في الشعر ما قد علمت، وكيف ترى فيه؟ فقال النبي ﷺ: «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه»[٣١].

فالجهاد كما بين النبي ﷺ في هذه الأحاديث ضروب، والشعر أحد أنواعها فهناك جهاد بالنفس حين يجود بها المرء منعتقاً من جبنه، شارياً بالنفس الفانية نفساً باقية تنعم بما عند الله من حسن الثواب... وهناك جهاد بالمال حين يبذله المرء في سبيل الله متحدياً نوازع الشح في نفسه مقرضاً هذا المال لله قرضاً حسناً يضاعفه له.. وهناك جهاد بالكلمة يقف بها جنباً إلى جنب من الجهاد بالنفس والمال.. بل إن الجهاد بالكلمة «أندر» والحاجة إليه- بسبب ندرته - أشد؛ ذلك لأن للناس جميعاً نفوساً يمكن أن يجودوا بها إذا صحت عزائمهم.. وأن لدى كثير من الناس مالاً يستطيعون أن يضحوا به إذا سمحت نفوسهم. ولكن سلاح الأدب نادر ثمين لا تملكه إلا القلة القليلة في أي مجتمع من المجتمعات، ذلك لأن قوامه الموهبة، والموهوبون قليل[٣٢].

إن سلاح اللسان سلاح خطير، فقد يفوق حد السنان أحياناً، فالكلمة بمقدورها أن تحدث شروخاً عميقة بين أفراد المجتمع، قد لا تستطيع أن تحدثها الأسلحة الفتاكة، لذلك ورد التحذير من اللسان والكلمة في كثير من الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة والآثار والأشعار[٣٣].

إن الشاعر المسلم يقف على ثغر من الثغور كباقي المجاهدين، فعليه ألا يتسرب العدو من خلاله، بل

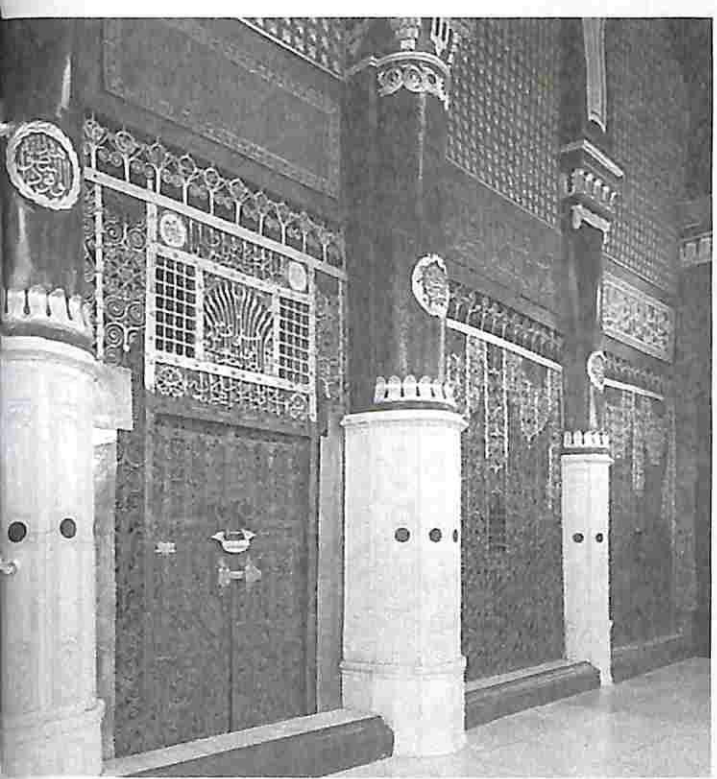

عليه أن يسخر هذه الموهبة لخدمة دينه وعقيدته، لأنه مجاهد في ساحة القتال؛ قال النبي ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»[٣٤]، لأنه على قدر منازل الناس ومواهبهم وقدراتهم تكون مهماتهم ومسؤولياتهم.

لقد شعر الشعراء المسلمون بهذه المسؤولية العظيمة فقاموا صفاً واحداً في وجه شعراء قريش ومن يواليها، يردون كيدهم ويهجونهم بمثل قولهم، فعن عمار بن ياسر قال: «لما هجانا المشركون شكونا ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: «قولوا لهم كما يقولون لكم»[٣٥].

فانتدب رسول الله ﷺ لهذه المهمة الجليلة فئة من الشعراء الصحابة هم: حسان بن ثابت وكعب ابن مالك وعبدالله بن رواحة، يؤازرهم شعراء آخرون من المهاجرين والأنصار، وبعض الشعراء من القبائل التي أسلمت [٣٦] فكان كعب يخوفهم الحرب، وعبدالله يعيرهم بالكفر، وكان حسان يقبل على الأنساب[٣٧] لذا كان قول كعب وحسان أشد القول عليهم كما يقول ابن الاثير [٣٨]، لكن لا يجب أن نفهم من هذا أن قول عبدالله بن رواحة لم يكن مؤثراً، بل كان شعره أشد على الكفار من نضح النبل.

سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه عبدالله بن رواحة ينشد أبياتاً في حرم الله تعالى يقول فيها:

**خلوا بني الكفار عن سبيله**
**اليوم نضربكم على تنزيله**
**ضرباً يزيل الهام عن مقيله**
**ويذهل الخليل عن خليله**

فقال له عمر: يا ابن رواحة بين يدي رسول الله ﷺ وفي حرم الله عز وجل تقول الشعر؟!، فقال له النبي ﷺ: «خل عنه فلهو أسرع فيهم من نضح النبل»[٣٩]. وفي رواية أخرى: «خل عنه يا عمر فوالذي نفسي بيده لكلامه أشد عليهم من وقع النبل»[٤٠].

لقد قام شعراء صدر الإسلام بواجبهم، فدافعوا عن الدعوة الإسلامية بألسنتهم وأسلحتهم، ومن يستقرئ دواوينهم يجد أن أغلب شعرهم كان دفاعاً عن الإسلام وأهله، ودفعاً لأعدائه، حتى تكون كلمة الله هي العليا، فاسمع لكعب بن مالك وهو يوضح منهج المسلمين في القتال يقول:

**يذودوننا عن ديننا ونذودهم**
**عن الكفر، والرحمن راءٍ وسامعُ**[٤١]

ويفخر كعب بن مالك رضي الله عنه بأنه ينافح عن رسول الله ﷺ بلسانه ويده، فيقول:

**يذود ويحمي عن ذمار محمد**
**ويدفع عنه باللسان وباليد**[٤٢]

لقد كان كعب يكثر من الحديث عن وظيفة الجندي المسلم شاعراً كان أم جندياً عادياً يقول:

**لنظهر دينك الله إنا**
**بكفك فاهدنا سبل الرشاد** [٤٣]

وقال أيضاً يوضح منهج المجاهد في سبيل الله:

**فإن تلقوا إلينا السلم نقبلْ**
**ونجعلْكم لنا عضداً وريفا**
**وإن تأبوا نجاهدكم ونصبرْ**
**ولا يك أمرنا رعشاً ضعيفا**
**نجالد ما بقينا أو تنيبوا**
**إلى الإسلام إذعاناً مضيفا**
**لأمر الله والإسلام حتى**
**يقوم الدين معتدلاً حنيفا**
**وتُنسى اللاتُ والعُزَى وَوَدٌّ**
**ونسلبها القلائد والشنوفا** [٤٤]

وهذا الشاعر كعب بن زهير يتمثل قيم الإسلام ومبادئه، وتصبح العقيدة مصدر إلهامه ومجال إبداعه، ويصبح شعره بعد حين صوتاً من أصوات الدعوة إلى الله عز وجل،

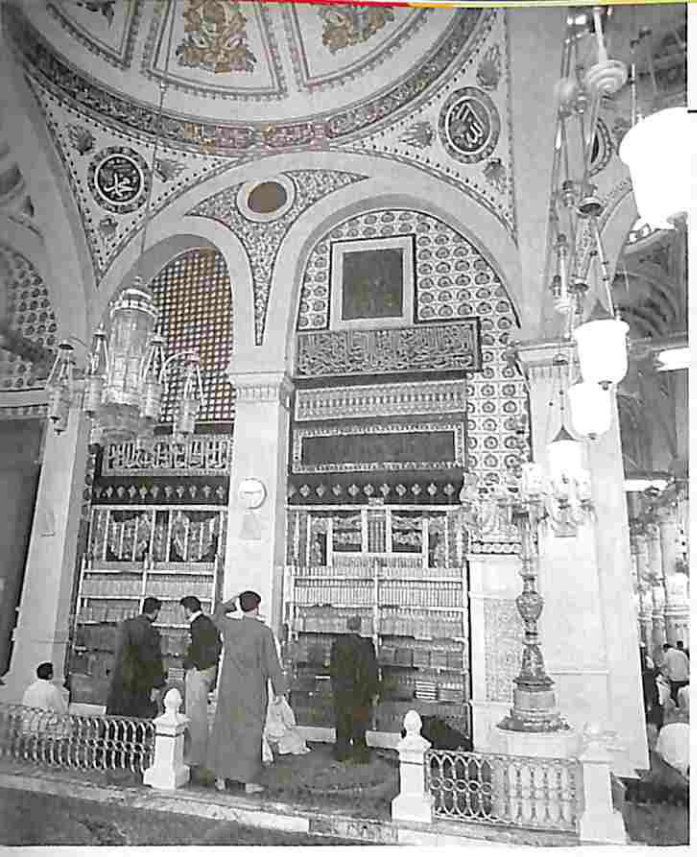

يقول بعد أن أسلم:

رحلت إلى قومي لأدعو جُلَّهم
إلى أمر حزم أحكمته الجوامعُ
ليوفوا بما كانوا عليه تعاقدوا
بخيفِ منى والله راءٍ وسامعُ
سأدعوهمُ جهدي إلى البر والتقى
وأمر العلا ما شايعتني الأصابعُ[٤٥]

ويوظف عبدالله بن رواحة شعره لمحاربة قريش، فيحط من قيمتها ثم يفخر بوجود رسول الله بينهم، فكيف يهزم جيش فيه رسول الله ﷺ ولذلك قال:

فخيرونيَ أثمان العباء متى
كنتم بطاريق أو دانت لكم مُضَرُ
نجالد الناس عن عرض فنأسرهم
فينا النبي وفينا تنزل السورُ
وقد علمتم بأنا ليس غالبنا
حيٌّ من الناس إن عزوا وإن كثروا[٤٦]

ويخير العباس بن مرداس قبيلة ثقيف بين الإسلام والكفر، فإن أسلموا كان لهم الشرف والتكريم، وإن أبوا فهم أذان بحرب من الله يقول:

فإن يهدوا إلى الإسلام يُلْفَوا
أنوف الناس ما سمر السميرُ
وإن لم يسلموا فهم أذان
بحرب الله ليس لهم نصيرُ[٤٧]

إلا أن أكبر شاعر في هذه الفترة سخر شعره لخدمة الإسلام والمسلمين هو حسان بن ثابت رضي الله عنه، شاعر رسول الله ﷺ بحق، فلقد وظف شعره لهجاء المشركين، لذا فإن أغلب شعره كان في الهجاء. وإذا كان ديوانه يحتوي على ثلاث وستين ومئتي مقطوعة وقصيدة[٤٨]، فإن النصيب الأوفر كان لغرض الهجاء على حساب الأغراض الأخرى، فقد أحصيت له ما يقرب من أربعين ومئة قطعة هجائية قالها في الإسلام، جاءت أغلبها في صورة مقطوعات قصيرة لاذعة شديدة الإيذاء، تتراوح ما بين ثلاثة أبيات وأربعة أي بنسبة تفوق خمسين في المائة.

وقد لجأ حسان إلى هذا النوع من المقطوعات الهجائية لأنه كان يدرك وقعها وخطورتها وشدتها على نفوس المهجوين، فهي أدعى لأن تكون أيسر حفظاً وأكثر تداولاً بين الناس، فقد قيل للحطيئة: مابال قصارك أكثر من طوالك؟ فقال: لأنها في الآذان أولج، وبالأفواه أعلق»[٤٩]، قيل لأبي المهوش الأسدي: لم لا تطيل الهجاء؟ فقال: «لم أجد المثل السائر إلا بيتاً واحداً»[٥٠]، وقيل لعقيل بن علقة: مابالك لا تطيل الهجاء؟ فقال: «يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق»[٥١] يريد أن الهجاء إذا أحاط بصفات المهجو، وسجلها تسجيلاً دقيقاً وعميقاً، في تعبير موجز كانت الإطالة غير ذات فائدة. وقد تطرق حسان إلى الهجاء بنوعيه (الجماعي والشخصي)، فهجا قريشاً وبعض بطونها في أزيد من عشرين نصاً، وخص قبيلة هذيل بثماني مقطوعات، هجاها فيها هجاءً مراً، فقد رسم لهذه القبيلة صوراً بشعة مفزعة، بحيث إنه لجأ في تشكيل صوره الهجائية إلى كل الأساليب، فلم يترك أسلوباً إلا طرقه، ولا عنصراً إلا استعان به في تصوير حالات مهجويه، وكان يستعرض قوته أمام أعدائه فيخوفهم بشعره ولسانه[٥٢]، واعتمد

أسلوب السخرية لإضحاك السامعين، وأسلوب الفحش لإسكات الخصوم، كما أنه وظف الحيوانات في تشكيل مضامين هجائه، فتعددت عنده أنواع الحيوانات المستخدمة (القرد- الكلب- التيس- القنفذ- الضبع...) ومن ذلك قوله:

إن سرك الغدر صرفاً لا مزاج له
فأت الرجيع وسل عن دار لحيانِ
قوم تواصوا بأكل الجار كلهم
فخيرهم رجلاً والتيس مثلانِ
لو ينطق التيس ذو اللحيين بينهم
لكان ذا شرف فيهم وذا شانِ [٥٣]

فيكفي هذه القبيلة أن يكون التيس أشرف منها.

ولم يكن حسان يلجأ في هجائه إلى التعابير الجامدة المجردة، بل كان يختار الصور التي تموج بالحركة والحيوية، مستغلاً رهافة حسه، ودقة ملاحظاته في إدخال الفزع والخوف بقلوب الأعداء، وقد يترك لخيال المتلقي العنان في أن يتصور هذه الصور!! من ذلك ما قاله يهجو هذيلاً وكيف صور لؤمهم:

لو خلق اللوم إنسانا يكلمهم
لكان خير هذيل حين يأتيها
ترى اللوم رقماً بين أعينهم
كما كوى أذرعَ العاناتِ كاويها
تبكي القبور إذا ما مات ميتهم
حتى يصيح بمن في الأرض داعيها
مثل القنافذ تخزى إذ تفاجئها
شدَّ النهار ويُلقى الليل ساريها [٥٤]

ومن أبدع نماذج حسان في الهجاء ما قاله في قبيلة هوازن وقد عادت النبي ﷺ، وأرادت النيل منه في غزوة حنين، فقال فيها:

أبلغ هوازن أعلاها وأسفلها
أن لست هاجيها إلا بما فيها
قبيلة ألأم الأحياء أكرمها
وأغدر الناس بالجيران وافيها
وشر من يحضر الأمصار حاضرها
وشر بادية الأعراب باديها
تبلى عظامهم إمَّا هُمُ دفنوا
تحت التراب ولا تبلى مخازيها
كأن أسنانهم من خبث طعمتهم
أظفار خاتنة كلَّت مواسيها [٥٥]

فيكفي هذه القبيلة هوازن من هذه الأبيات أن عظامهم تبلى ولا تبلى مخازيهم.

لذلك فإن حسان يؤكد في شعره أنه لن يتوقف، ولن يتوانى في مواجهة خصومه حتى يتراجعوا عن غيهم وضلالهم، ويتركوا عبادة الأصنام، ويتمسكوا بحبل الله المتين، يقول:

أما قريش فإني لست تاركهم
حتى ينيبوا من الغيات للرشدِ
ويتركوا اللات والعزى بمنزلة
ويسجدوا كلهم للخالق الصمدِ
ويشهدوا أن ما قال الرسول لهم
حقٌ ويوفوا بعهد الواحد الأحدِ [٥٦]

وبذلك يكون الشعر الإسلامي قد قدم خدمات جليلة للدعوة الإسلامية، وكان له دور مشرق في نصرة رسول الله ﷺ، وفي الدفاع عن المسلمين وعن تعاليم الدين الجديد ومبادئه والوقوف بقوة في وجه خصومه. ■

**الهوامش:**

(١) العمدة لابن رشيق تحقيق قرقزان ١/ ١٢٢.
(٢) ديوان حسان بن ثابت تحقيق د. وليد عرفات ق١ ص١٨.
(٣) الأغاني ٦ /٣٥٨-٣٥٩ دار الكتب.
(٤) الاستيعاب ٦ /١٨٠-١٨٧
(٥) ديوان كعب بن مالك تحقيق سامي مكي الصافي ق ٦١ص ٢٧٧.
(٦) المغازي للواقدي ١ /١٧٢-١٧٣.
(٧) أسد الغابة لابن الأثير ١/٤٦.
(٨) سيرة ابن هشام قسم ٣-٤ ص٤٢٠-٤٢١ وأسد الغابة ٧ /٤٠٤-٤٠٥.

(٩) الأغاني ١٤ /٣٠٧.
(١٠) أسد الغابة ٧ /١١٧ ، والإصابة ١٢ /٢٦٣، والاستيعاب ١٣/٩.
(١١) الإصابة ٤ /١٨٤.
(١٢) شرح ديوان الحماسة مجلد ٢ ص ٤ ق ٨٢٤ ص ١٨٢٥-١٨٢٧ وأسد الغابة ١ / ١٤٧و ٤ /٤٧٥-٤٧٦ والإصابة٨ /٢٩٢.
(١٣) هو كعب بن الأشرف، كان شاعراً يهودياً يهجو النبي ﷺ وأصحابه، ويحرض عليهم كفار قريش في شعره، وكان يشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم. أمر النبي ﷺ بقتله فقتله محمد بن مسلمة (انظر سيرة ابن هشام ق٣-٤ ص٥٤ ومابعدها، المغازي ١ /١٨٤ ومابعدها).
(١٤) المغازي للواقدي ج ١ /١٨٧
(١٥) المغازي للواقدي ج ١ /١٨٧.
(١٦) أسد الغابة ج ٤/ص٤٧٥-٤٧٦ والإصابة ٨ /٢٨٩.
(١٧) ابن خطل هو هلال بن عبد الله بن عبد مناف: أسلم وهاجر ثم ارتد وهرب إلى مكة، كانت له قينتان وكانتا تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ ، ويدخل عليهما المشركون، فيشربون عنده الخمر، فقال رسول الله ﷺ : اقتلوه ولو كان متعلقاً بأستار الكعبة. فقتله أبو برزة الأسلمي (أنساب الأشراف ١ /٣٥٩-٣٦٠).
(١٨) ابن صبابة: هو مقيس بن صبابة الكناني قُتل أخوه هاشم خطأ فقضى له رسول الله ﷺ بدية أخيه، فأخذها وأسلم، ثم عدا على قاتل أخيه فقتله وهرب (أنساب الأشراف ١ /٣٥٨-٣٥٩).
(١٩) العمدة ١ /٧٩-٨٠ .
(٢٠) أنساب الأشراف ١ /٣٥٧.
(٢١) شرح صحيح مسلم- كتاب فضائل الصحابة- باب فضائل حسان بن ثابت رضي الله عنه ج١٦ص ٢٨٢-٢٨٣.
(٢٢) ديوان حسان بن ثابت ق ٣٩ص١٣٧.
(٢٣) الإصابة ج ٢/ ص١٦٨-١٦٩.
(٢٤) أسد الغابة ١ /٤٠٩ - ٤١٠ ترجمة ٩٤١.
(٢٥) سيرة ابن هشام ق ٣-٤ ص ٤١٨-٤١٩.
(٢٦) ديوان عبدالله بن الزبعرى تحقيق د.يحيى الحيدري ق ١٠ ص ٣٦.
(٢٧) مسند أحمد ج٥/ص ٣٥٠.
(٢٨) الاستيعاب لابن عبد البر ٩ /١٠ ص ٢٥٣ /٢٥٤.
(٢٩) نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد د.عبدالرحمن رأفت الباشا ص ١٧ دار الأدب الإسلامي.
(٣٠) سنن أبي داود ، كتاب الجهاد ٣ /٢٢-٢٣.
(٣١) مسند أحمد ٤ /٣٠٧ .
(٣٢) المصدر نفسه ٥ /٣٥٠.
(٣٣) نحو مذهب إسلامي ص ١٨.
(٣٤) وردت آيات كثيرة تتحدث عن خطورة الكلمة من ذلك قول الله تعالى «ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد» سورة ق ، آية ١٨ . وقوله تعالى﴿ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها﴾ إبراهيم آية ٢٨، وانظر الأحاديث في باب حفظ اللسان فتح الباري ١١ /٣٧٣ ، وفي الشعر قول سويد بن أبي كاهل اليشكري (ولساناً صيرفياً صارما/ كحسام السيف ما مس قطع) المفضليات ص ٢٠١، وانظر الحيوان للجاحظ ٣ /٦٢.
(٣٥) شرح صحيح مسلم، النووي ١ /٣٨٠-٣٨١ كتاب الإيمان.
(٣٦) مسند أحمد ٤ /٢٦٤.
(٣٧) انظر سيرة ابن هشام، فقد ذكر مجموعة من الشعراء الذين شاركوا في هذه المعركة الكلامية كأبي أحمد بن جحش وخوات بن جبير وصفوان بن المعطل والزبرقان بن بدر وعبد الله بن الحارث السهمي والعباس ابن مرداس.
(٣٨) الاستيعاب لابن عبد البر ١ /٢٥٣ .
(٣٩) أسد الغابة لابن الاثير ٢ /٦.
(٤٠) سنن النسائي، كتاب مناسك الحج باب إنشاد الشعر في الحرم والتغني بين يدي الإمام ص ٣-٤ حديث ٢٨٢٤.
(٤٠) ديوان كعب بن مالك تحقيق سامي مكي الصافي ق ٣٤ ص ٢٣٠ البيت ٣.
(٤٢) المصدر السابق ق ١٥ ص ١٩٦ البيت ٥.
(٤٣) المصدر نفسه ق ١٤ ص ١٩٥ البيت ٣٤.
(٤٤) ديوان كعب بن مالك ق ٣٨ ص ٢٣٦ الأبيات ١٦ إلى ١٨ و ٢٣ و ٢٤.
(٤٥) ديوان كعب بن زهير حققه وشرحه الأستاذ علي فاعور ص ٤٢.
(٤٦) ديوان عبد الله بن رواحة تحقيق د.وليد قصاب، الرياض.
(٤٧) ديوان العباس بن مرداس- تحقيق د.يحيى الجبوري ق ٢٢ ص ٧٠ ، البيان ٢٣و٢٤.
(٤٨) ديوان حسان ، تحقيق عرفات: قصائد المخطوطتين ٢٦٣ ما جمع المحقق ١٠٩ المجموع ٣٧٢ ، أما تحقيق سيد حنفي فهو حسب المخطوط ٢٥٤، وجمع المحقق ٧١ /٣٢٥ واعتمدت في الإحصاء على ما في المخطوط.
(٤٩) كتاب الصناعتين للعسكري، ص١٧٤ .
(٥٠) البيان والتبيين للجاحظ ١/٢٠٧.
(٥١) الشعر والشعراء لابن قتيبة١/٧٦ والصناعتين، ص ١٧٣ .
(٥٢) ديوان حسان تحقيق عرفات ق ١٨، ق ٥٠، ق ١٢٤-١٢٦-١٤٥-١٨٠-١٨٢-١٨٥، ١-٧
(٥٣) ديوان حسان ق ٦٤ ، ص ١٧١.
(٥٤) المصدر نفسه ق ٦٥ ، ص ١٧٢.
(٥٥) المصدر نفسه ق ٩٩، ص ٢١٦.
(٥٦) ديوان حسان ق ١٣٨ ، ص ٢٨٤.

## أهكذا أمر ؟!

أهكذا أمر ؟!
دونما اهتمام من أحد
كأنما أرى عيونا قد أصابها الرمد
أمر بينهم وهم كما الرماد
أطفأت أحلامهم
ريح الخمول فانقضى
الرجاء من عيونهم
ولم تعد تقوى على
تأمل المدى فإنما أضاع فجرها
غشاوة سدت عن الرؤى
معالم الرشاد
أمر والأيام ما زالت تفيض
عبرة
ولم تزل تفجر النار من تحت الرماد
أمر بينهم وعبرتي معي
ولم يزل يجري على لسانها
فصل الخطاب
بأنهم من غير دينهم
سراب

شعر : غازي المهر
الأردن